

# Fabrication de la poterie à Nabeul صناعة الخزف بنابل

Rim KHMIRI  
ريم خميري

*Rim KHMIRI expose une étude réalisée pour l'obtention du Certificat d'Aptitude à la Recherche et portant sur la fabrication de la poterie à Nabeul (Tunisie orientale) et s'essaye à montrer les transformations d'un secteur de l'artisanat qui connaît un processus de modernisation.*

*Cette recherche s'appuie sur l'observation et des entretiens auprès de propriétaires d'ateliers et ouvriers fabricants. Bien que la poterie tunisienne ne soit pas une activité exclusive de la ville de Nabeul, elle se distingue dans cette ville par une évolution proche de l'industrialisation. La position géographique de Nabeul entre Jerba (un autre pôle de poterie) et le nord a fait bénéficier l'artisanat local d'influences liées aux apports migratoires qui ont enrichi la conception et la fabrication. C'est le tourisme qui représente le principal stimulateur de la poterie eu égard à la faible consommation des nationaux. Ce travail met en évidence le processus de modernisation qui touche les techniques de fabrication sans oublier les difficultés que dénotent le vieillissement de la main-d'oeuvre et la désertion des jeunes.*

في هذه الحلقة من "بحوث بصدد الإنجاز" تتعرض ريم خميري لصناعة الخزف بنابل وتحاول إبراز الوظيفة الحالية لهذه الحرفة موضحة التعايش الموجود بين القطاعين التقليدي و العصري - الصناعي لصناعة الخزف، وهي تتطرق لخصائص كل من القطاعين لإظهار مختلف العلاقات التي تربط بينهما. وبعد هذا العمل تحضيراً لشهادة الكفاءة في البحث في علم الجغرافيا. وقد ركزت الباحثة أساساً على الاستفادة من الزيارات الميدانية حيث قامت باستجوابات مباشرة لأصحاب وعمال الورشات التقليدية والمصانع، كما طبقت خلال هذا المسح استمارة موجهة لأربعين ورشة تقليدية. وأخيراً استعانت ببعض المؤسسات الحكومية التي لها علاقة بهذا الموضوع : الولاية، البلدية، وزارة الفلاحة، ديوان الصناعات التقليدية بنابل، والوكالة القومية للنهوض بالصناعة.

*Il est à noter que le texte de Recherches en cours se lit dans l'ordre de la pagination.*

توجد مدينة نابيل في منطقة فلاحية تتميز أساسا بغراسة القوارص وهي تمثل المدينة الأولى من حيث إنتاج هذا النوع من الحوامض وقد ساعد على ذلك طبيعة مناخ هذه المنطقة الساحلية. كما عرفت مدينة نابيل في العهد الروماني باسم "نيابوليس" "NEAPOLIS" التي تشرف آثارها على البحر وقد ساهم ذلك في تطور السياحة بها فأصبحت تمثل إلى جانب الحمامات المنطقة السياحية الثانية في تونس بعد سوسة و المنستير. وما زاد في جلب السواح هو طابع المدينة التقليدي فنابل تعتبر المدينة التقليدية المثالية في البلاد التونسية نتيجة تنوع وتعدد الأنشطة التقليدية بها كصناعة "الحصير" (Nattes) و "الطرز" (Broderie) ... إلا ان أهم هذه الأنشطة هي صناعة الخزف وبذلك تعدّ نابيل من بين المراكز الأساسية لإنتاج الخزف في البلاد إلى جانب قلالة في ولاية مدينين و المكينين في المنستير. لكن ما يميّز نابيل عن بقية هذه المراكز هو تطور هذا النشاط و مروره بجملة من التعصيرات جعلته يصل إلى حدود التصنيع. ويدخل ذلك في إطار المسار الذي أصبحت تعرفه الصناعات التقليدية اليوم في بلدان العالم الثالث بصفة عامة وفي البلاد التونسية خاصة. وهذا المسار يتلخص أساسا في تحول الصناعة التقليدية تدريجيا من إطارها التقليدي الخاص إلى الإطار التصنيعي المتطور والمنفتح بصورة مستمرة على كل إمكانيات التعصير والتجديد.

إن هدف هذا البحث هو فهم وإبراز هذه التحولات و التعصيرات ومن ثمة التصنيع الذي شمل صناعة الخزف.

تعود صناعة الخزف التقليدي بنابل الى أقدم الفترات التاريخية وخصوصا الفينيقية والرومانية، وقد بينت الأبحاث الأركيولوجية ان صناعة الخزف في تونس بصفة عامة وفي نابيل بصفة خاصة ترجع الى العصر الحجري الحديث (Néolithique). والطريف ان هذه الصناعة قد حافظت على تقنياتها القديمة في مراحل العمل (الصنع) وظلت تتأثر بكل الحضارات التي عرفتھا البلاد التونسية عموما منذ القديم حتى آخر العهد الوسيط والى القرنين السادس عشر و السابع عشر حيث تآثرت هذه الصناعة بالخبرات الأندلسية. ان كل هذه العوامل أثرت في هذا النشاط ومنحته طابعه الفني وذلك بدخول الألوان أو بالأحرى الأدهان المختلفة من حيث المواد الأولية.

وما زاد هذه الصناعة ترسخا وتمركزا هو قدوم وهجرة عدد كبير من أصيلي جزيرة جربة إلى مدينة نابيل والإستقرار بها نتيجة توفر المادة الأولية (1) الضرورية لهذه الصناعة. ولقد تأثرت صناعة الخزف في نابيل كذلك بالخزف الفني الموجود في تونس العاصمة- القلايين. ونتيجة لموقع نابيل كهزمة وصل او كنقطة وسط بين القطب الجنوبي لصناعة الخزف (جربة) والقطب الشمالي لها (العاصمة)، فإن طابع صناعة الخزف قد إنفتح على التأثيرين وتمكن بفضلهما أن يصل إلى خلق طابع يميز هذه المدينة عن بقية المدن المنتجة للخزف في تونس .

توزيع المشتغلين حسب القطاعات الاقتصادية

القطاع	القطاع الفلاحي	القطاع الصناعي	قطاع الخدمات
النسبة في نابيل	54.3	21.7	24.2
النسبة في البلاد التونسية	41.1	28.1	30.2

عدد المشتغلين في قطاع الخزف

المكان	عدد المشتغلين	عدد المشتغلين
ولاية نابيل	1975	1984
البلاد التونسية	105290	135990
	1786420	134870

هوامش

(1) الطين في غار "الطفل".

ولتوضيح عملية التواصل التي تميز هذه الصناعة، سنشير إلى الورشات التقليدية النابلية التي حافظت على طابعها الأصلي منذ بروزها إلى يومنا هذا  
يتفرع الخزف التقليدي في نابل إلى "فخار عربي" و "فخار مطلي" والإختلاف بينهما يكمن أساسا في "الطفل" و الألوان اوالأدهان المستعملة للتزويق.  
والنوع الأول يرتبط "بالطفل" المستخرجة من مقطع "غار الطفل" الموجود في مدينة نابل أما الثاني فيرتبط "بالطفل" المستخرجة من مقاطع الطين الرفيعة نسبيا مع مادة "الدلومي" الموجودة في عين دراهم وطبرقة.  
إن مراحل إحضار "الطفل" وتشكيله متعددة ومنتظمة بصورة متتالية وتتطلب كلها خبرة كبيرة فنجد :  
-عملية الفرز والتجفيف : إختيار "الطفل" المناسب.  
-عملية التفتيت : تفتيت الحجارة إلى قطع صغيرة.  
-عملية تغطيس الطوب في الماء : للتخلي من كل الأوساخ وتدوم خمسة عشر يوما.  
-مرحلة العجن : وهي تستوجب خبرة كبيرة خاصة في إستعمال الساقين للعجن ثم في مرحلة موالية إستعمال الأيدي لذلك.

مرحلة التشكل وتأتي عن طريق ناعورة يتم تحريكها بالأرجل.  
-تجفيف الأواني المجهزة بصورة طبيعية (أشعة الشمس).  
-الطهي في الأفران التقليدية : وتتطلب خبرة كبيرة خاصة في الإيقاد-إشعال نار الفرن-وفي الأفران ذات الشكل المقيب وفي التوقيت للطهي للحصول على ما يسمى "بالشواط".  
تنوع هذه الأفران التقليدية حسب الأحجام، ونتيجة إختلاف الحجم تختلف طاقة الإستيعاب لدى هذه الأفران التقليدية ونتبين ذلك إنطلاقا من الجدول التالي :

الأفران	قطر بين النار	طول القصبة	إرتفاع القصبة	طول بيت النار
الكوشة	4,5 م	2,25 م	1 م	2,25 م
الرويس	3 م	1,25 م	0,60 م	1,25 م
التنورة	2 م	1,25 م	0,40 م	1,25 م

مرحلة التزويق :

-الرسوم : وترتبط بمساحيق عدة مواد معدنية تهيء لها العمليات التالية :

-إحضار الأوكسيد المعدني.

-سحق الأوكسيد وحرقه.

-إحضار الدهن.

-وضع القطع في هذه المساحيق.

أما الألوان الرائجة فهي : الأصفر والأخضر والأحمر.

وهذه الصناعة التقليدية تعيش في وضعية وسطى بين الحبوبة والتأزم، حيويتها تكمن في الإعتماد على طابع نابل السياحي إذ أن الصناعة التقليدية بصفة عامة والخزف في نابل خاصة قد وقع إنقاذاها من هوة الإحتضار والتدهور عند دخول السياحة كقطاع تنشيطي للإقتصاد الوطني. وأهم دليل على ذلك هو ما وضحه الحرفيين عندما أكدوا لنا أن

معدل تردّد السكان التونسيين على النقاط التجارية للخزف لا يتجاوز في أقصى حد له 10% من جملة المستهلكين و البقية يمثلها السواح. وهكذا تمثل السياحة المحرك الأساسي القائم وراء الصمود والانتعاش المستمر لهذا النشاط الذي كان من المنتظر أن يندثر كما إندثرت العديد من الأنشطة. وهذه الحركية أثرت بصورة إيجابية جداً على الأسعار حيث إرتفعت، الشيء الذي مكن المنتجين والمروجين للخزف من أرباح هامة تفوق تكاليف الإنتاج كثيراً فتصل حسب بعض الفواتير المطلع عليها أثناء البحث إلى تضاعف الفائق بثلاثة أو أربعة مرات لتيمنة التكاليف.

ومع هذه الحيوية يعيش القطاع مشاكل تتمثل أساساً في المنافسة المتزايدة بين المنتجين للخزف من ناحية وفي تهرم الخزافين ونفور اليد العاملة الشابة من هذا القطاع نظراً لصعوبته. فأصبح هذا النشاط يعاني من مشاكل هيكلية تتمثل في عدم إمكانية تجده وبقائه في المستقبل خاصة بعد وفاة هؤلاء الخزافين الكبار. فالورشة لم تعد بمثابة المدرسة التي يتم داخلها تلقن حيثيات ومبادئ العمل بل هي الآن بمثابة البناء الشاغر من العمال الشبان.

لقد تمّت محاولة تطوير هذه الحرفة بتجميعها في منطقة بعيدة عن المدينة وعن الأحياء السكنية نتيجة لتلويثها للمحيط فكونت الورشات الجديدة حياً صناعياً متاخماً للمنطقة الصناعية الموجودة خارج مدينة نابل.

إن مدينة نابل تشهد عملية تعصير لقطاع الخزف التقليدي وخلق قطاع خزف مصنّع داخل ورشات ضخمة (2) وعملية التعصير هذه تتمثل أساساً في :

-إستعمال الأدهان المستوردة من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا هذا إلى جانب إستعمال مواد أولية غير محلية : متمثلة في الطين المستوردة من "مقاطع الطفل في ليموج" (مدينة فرنسا). كذلك لتنوع الأشكال المنتجة تم إستعمال طرق جديدة للتشكيل تمثلت في تقنية "الكولاج" أو "التوالب".

-إستعمال الأفران الكهربائية والغازية المستوردة أمّا كلها أو مكوناتها الأساسية من الدول الأجنبية.

-اللجوء إلى آلات كهربائية لتعويض اليد العاملة عند إحضار "الطفل" أو عند التشكيل لكن مع ذلك لم يتم الإستغناء عن اليد العاملة في جل مراحل العمل منذ إحضار "الطفل" إلى عملية التعليب المخصصة لإحضار الأنتاج للترويج. ومن أهم المؤسسات التي تعبر عن عملية التعصير لصناعة الخزف التقليدي الديوان القومي لصناعة الخزف بنابل والشركة التونسية لصناعة الخزف بمدينة نابل المتعددة الأطراف.

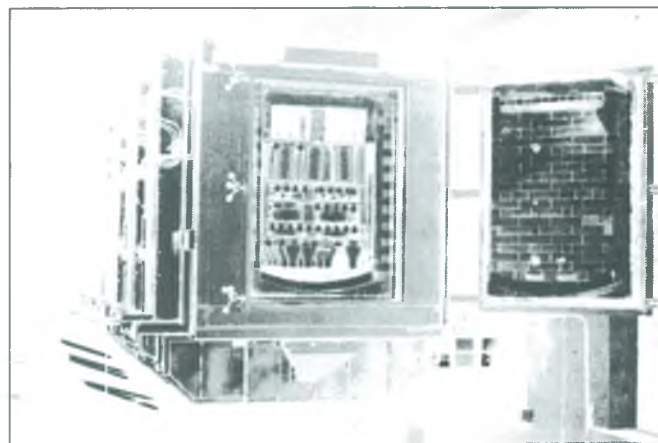
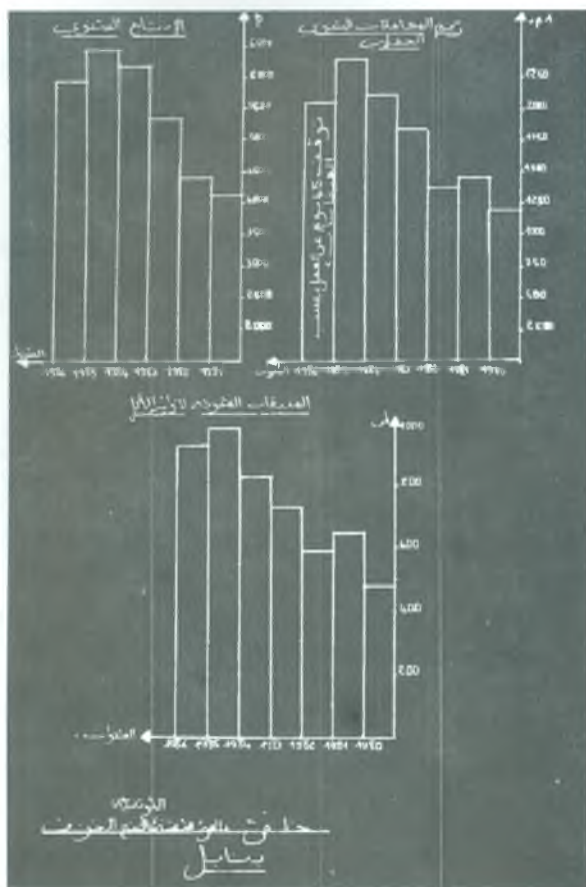
جملة الأطراف	نصيب كل طرف
الدولة	٪ 36,03
المؤسسات شبه عمومية	٪ 28,00
الخواص	٪ 46,07

ونتيجة لهذه التحضيرات، تطور الإنتاج المحلي للمواد الخزفية كماً وكيفاً مما أدّى إلى الترفيع من قيمة المبيعات السنوية .

هوامش

(2) مصنع الحركاز للخزف ومصنع القديدي

ومصنع القصطي ومصنع القرنتي...



قرن كهربائي

REFERENCES  
BIBLIOGRAPHIQUES

1) *L'Artisanat Tunisien*, Paris, Centre National de Documentation Pédagogique, 1954.

2) AUMASSIP G. "Les dégraissants dans la céramique modelée d'Afrique du Nord et du Sahara", *Actes du 1er colloque international d'Archéologie Africaine*, Fort lamy, Tchad, 1966.

3) BALFET Helène, "Poterie artisanale en Tunisie", *Cahiers de Tunisie*, 3<sup>ème</sup> et 4<sup>ème</sup> trimestres, 1958, pp. 317-348.

4) BROUSSARD G. *Les carreaux de faïence peints dans l'Afrique du Nord*, Paris, Plon, 1930.

5) COMBLES J.L. et LOUIS A. "Les potiers de Djerba", *Cahiers du Centre des Arts et Traditions Populaires*, n°1, 1967.

6) GOBERT Ernest-Gustave, "Les poteries modelées du paysan tunisien", *Revue Tunisienne*, 3<sup>ème</sup> et 4<sup>ème</sup> trimestres, 1940, pp. 119-193.

7) LISSE Pierre et LOUIS André, *Les poteries de Nabeul. Etude de Sociologie Tunisienne*, Tunis, Bascone Murat, 1965.

8) MARCAIS Georges, "Fakhkhar", *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, tome II, pp. 763-767.

9) SETHOM Hafedh, "L'Artisanat de la poterie en Tunisie", *Mémoires de la Société de Géographie*, tome I, Paris, 1964, pp. 455-606.

10) VAN GENNEP André, *Recherches sur les poteries peintes de l'Afrique du Nord, Tunisie, Algérie, Maroc*, 1918.